حافظ ابراهيم شاعر الفخامة

الأستاذ كرم ملحم كرم

حافظ العسكري اقتدى بالبارودي العسكري
فجاء شعره قوياً كالأمر دقيقاً كالنظام

ظهر الشعر ضعيفاً فى مطلع عهد الانبعاث . فكأنه ليس بالشعر ، إن هو إلاّ كلمات مرصوفة بعجز ، لا تدل على معنى سامٍ ولا تزخر بالقوة . وكأن أولئك النظّامين يجهلون حسن الصياغة ، فنفحونا بشعر مائع فى معناه ومبناه . وكل ما رموا فيه إلى الاقتداء بالأقدمين . لا فى سبكهم الشعر بل فى مواقعهم من ولاة الأمر . فعلموا أن الأخطل كان يمدح معاوية ويزيد ويتمتع برحابة عبد الملك ، وأن أبا نواس مدح الرشيد والأمين ، وأن المتنبي تغنى بمآثر سيف الدولة ، إذاً عليهم أن يمتدحوا الحكام والولاة . عرفوا أن الشعر يبدأ بالغزل وينتهى إلى المدح ، فنهجوا هذا النهج اندفاعاً وراء البحترى والمتنبي ومهيار الديلمى ومن جرى مجراهم من شعراء العصر العباسى الأخير

وطالعوا فى صفى الدين الحلىّ الطباق والجناس وتسخير المعنى للألفاظ ، فقلدوا صفى الدين فيما أنشدوا من شعر ، وما نظموا من قصائد خالية فى معظمها من روعة البيان والابتكار

بلى ، لقد حاول الشيخ ناصيف اليازجي الخروج عن هذه الدائرة ، إلا أنه لم يكن ابن نفسه فى معظم ما أنشد . فهو مدين للمتنبي فى أكثر قصائده مع كونه شاعراً ، على أن الشاعرية لا تنفى التقليد

وأول من برز من الشعراء الأقحاح بعد الشيخ ناصيف اليازجى هو محمود سامى البارودى ، فجمع بين حسن الصياغة والمعنى . وإن يكن هذا المعنى غير مبسوط أحياناً ينحصر فى نطاق معلوم ، فهو خير ما جاد به علينا مطلع عصر الانبعاث . وتكفى تلك الصياغة المشرقة التى اهتدى إليها البارودى ونبذ بها الركاكة الشائعة يومذاك ليكون لهذا الشاعر فضل عميم على القريض . فالشعر العربى نهض بالاستناد الى البارودى نهضة نشاهد آثارها فى شعراء اليوم . وقد تكون نهضته نهضة ألفاظ أكثر منها نهضة معان . على أن نهضة الألفاظ هذه صقلت الشعر ، ونفت عنه الاضطراب ، وقادته فى طريق سوىّ انتهى به إلى شعر المعانى الأنيق ، البرّاق الظاهر ، الخالى من كل وهن وعيب سواء فى لغته أو تركيبه

وحافظ ابراهيم اقتدى بالبارودى فى حسن صياغته . فعمد الى الشعر العالى النفس . المتين القالب ، يشد به نفثاته . وكأنما ونحن نقرأه نسمع الفرزدق أو بشاراً ، على ان هذا الشعر لم يكن موفقاً فى معظم الأحيان بمعانيه مثله بألفاظه

فهناك ألفاظ مختارة تعيد الى الاذهان عصر الجاهلية وما تلاه من أعصر أشرق فيها الأدب العربى وأزهر . ولا نكير أن الشعر فى الجاهلية وصدر الاسلام والأعصر العباسية كان أشد خصباً فى المعانى من شعر الانبعاث فى مستهله ، بيد أن النهضة لا تعتمد على الطفرة فى مسيرها بل تمشى وئيداً الى هدفها الأعلى . ولا بد فى مطلع كل نهضة أدبية من هزة لفظية تجتاح القوالب الرثة لتقيم الأدب الجديد على ركن لغوى سليم

والهزة اللفظية بدأها اليازجى الكبير والشدياق ونقلها الى مصر اليازجى الأمين ؛ فلا عجب اذا اعتمدها البارودى فى بيانه وتلاه حافظ ابراهيم . وحافظ تأثر بالبارودى فى شعره ومسلكه ، وطمح فى أن يرتقى يوماً الى مستوى هذا الشاعر العسكرى . فالبارودى تربع فى مقعد الوزارة ، وحافظ شاقه أن يجلس يوماً فى هذا المقعد وان يبلغ شأن زميله . وهو لما كان يرتدى ثوب ضابط فى السودان ما انفك عن التودد الى الشيخ محمد عبده . وكل قصده أن يمهد الشيخ له السبيل الى الوزارة أو الى منصب سام فى الجيش . بيد أنه لم يقع منه على ضالته . فالشيخ كان يتناول رسائل حافظ ويطويها دون أن يكترث كل الاكتراث لهذا الضابط الوافر الآمال ، العاقد عليه رجاءه . فيئس حافظ أو كاد ، ودعا اخوانه الى التمرد على الأوامر العليا ، ومال عن الجيش الى الاشتغال بالأدب فى مصر . ومع كل ما لقى من فتور الشيخ محمد عبده ظل له على وفاء وولاء . واتابته الفاقة وهو يرقب انصاف الشيخ له وما تولى عمن تولى عنه .

* * *

وكان ميدان الأدب يضيق بالفرسان . فهناك شوقى ومطران وولى الدين واحمد محرم والمنفلوطى . وظهر شوقى فى القمة يزاحمه

عليها خليل مطران . على ان حافظاً لم يدركه اليأس . فدفع فى الحلبة جواده يبغى الوصول الى القمة شأن شوقى نفسه . على أن ما توفر لشوقى لم يتوفر له . فقد ملك شوقى المال والثقافة معاً . فكان واسع الاطلاع ، ناعم البال ، يعلم حق العلم ان عيشه مضمون فى حاضره وفى غده . على حين ان حافظاً فقد أمله فى الحاضر والمستقبل . فكافح الشقاء ، غير أن الشقاء أقوى منه . ونظر الى آتيه واذا الآتى يبدو مبهماً ان لم يبد فاحماً أسود

فى هذه البيئة المضطربة عاش حافظ بين الافلاس والشقاء والأمل الطعين . فلا يسعفه من اعتمد عليهم ولا ينجده دهره . ولم يبق لديه سوى بيانه . على أن البيان لم يوفر له العيش الرغيد مع كل ما فطر عليه من حسن المخالقة وجلو الحديث ونبل النفس ؛ فلم يكن حافظ ممن يتسفلون الى استجداء اللقمة ، بل كان يجتهد ما استطاع فى صون كرامته وهو الرجل العسكرى الشديد الحرص على شرفه وواجبه

ولمعت قصائد حافظ الأولى . وقام الناس يقارنون بينه وبين شوقى . فأدرك حافظ أنه بلغ القمة التى يصبو إليها . وأن الحجر العثرة فى الطريق هو شوقى دون سواه ، فان هو ذلل هذه العقبة هان عليه كل عسير ونال المشتهى . فليس أمامه غير هذا الخصم وعليه ألا ينام عنه ، ومما كان يؤلمه أن يلمع شوقى لدى الخديو عباس وأن يؤثره عزيز مصر على الأدباء أجمعين ، فلماذا يكون شوقى فى تلك المرتبة السامية ولا يترقى هو (حافظ) إلى المكانة نفسها ! . . ولقد كان يطمع فى مكانة أسمى ، فشاء أن يكون شاعر الخليفة العثمانى وأن يتفوق على شوقى فى أدبه ومنزلته إلا أن الأقدار لم تضمن له مايرجو .

فنقم على دهره وأبى أن يناصر مذهب شوقى السياسى فدرج على خطى محمد عبده خصم الخديو ، ونفخ فى بوق الوطنية فكانت قصائده تلهب الحماسة فى النفوس فيصفق لها العرب بأجمعهم لكون القوة تتجلى فيها . وغار منه شوقى فنسج على منواله فى رثاء مصطفى كامل وفى سقوط أدرنه وفى سقوط عبد الحميد . فكل مأثرة وطنية كانت تجد لها صدى فى قريحة الشاعرين ، إلا أن صداها فى منظوم حافظ أكثر صدقاً منه فى منظوم شوقى . فلم يكن منى شوقى إلا أن يتغلب على هذا المزاحم الوثاب . وكيف يزاحمه بسوى إطلاق بلاغته وبيانه ؟

والزحام كان جليل الفائدة . فالشاعران جالا فيه على مايتسع لهما المدى . فبذلا كل مايملكان من موهبة . وكان حافظ يتفوق حيناً وحيناً شوقى . وأحياناً كانا يتساويان . إلا أن ثقافة شوقى ساعدته فى استنزال المعانى أكثر مما توفر الأمر لحافظ . ولسنا ننفى عن حافظ اصطياد هذه المعانى المبتكرة ، إلا أنه لم يكن موفور التوليد فيها . فاللفظ وحسن الصياغة كانا يشغلانه عن المعنى . وهو لو كان يجيد لغة أجنبية ، لو اطلع على أدب الغرب مثله على أدب العرب لبات أوسع خيالا وأشد عمقاً فى منظومه ، إلا أن جهله اللغات الأجنبية[1] وقف به عند الأدب العربى ، فما تفتحت عيناه على آفاق بعيدة يخلو منها أدبنا القديم . فكان يجتهد فى الاقتداء ببشار وبالمتنبى فى صياغتهما . ويميل عن كل أسفاف فى المبنى . وهذا المجهود من حافظ فى إنقاذ آثاره من الضعف اللغوى أهاب بشوقى إلى الانعكاف على درس اللغة ليدفع عن قصائده هذا الشين

وإن يكن لابد من المقارنة بين شاعرين عاشا فى عصر واحد واندفعا فى طريق يكاد يكون واحدا فى مانظا وأطلقا من خواطرهما قلنا إن شوقى يتقدم حافظا فى معانيه وموسيقى ألفاظه . فيحلق فى جو أسمى من جو حافظ . فكأنه يملك جناحين أوفى انبساطا ، وأشد عزماً . كأنه كتلة من أعصاب تأبى إلا أن تندفع إلى الأعالى تقع فيها على كل جديد ، فترى وتلمس مالا يتفق لسوى من ملك قوتها فى اقتحام مسبح الفلك . وحسب شوقى أن يرصع صدر الملعب العربى بتلك الروايات التمثيلية . فشاء بها أن يضارع كبار شعراء العالم أمثال شكسبير وكورناى وراسين وفولتير وفكتور هيغو . فما « مجنون ليلى » غير « روميو وجوليت » لشكسبير ، وما « كليوباترة » غير « أندروماك » لراسين

وحافظ لم يخترق هذا الجو . فاكتفى بالديباجة الفخمة ، بعظمة الجند ، بالشارات العسكرية البراقة . فأنت تحس وأنت تقرأه بأنك أمام شاعر يتقلد سيفاً ويعلن أمراً . فلا محاباة ولا مصانعة ، بل قوة جياشة تدعوك إلى الإصغاء بكلام طنان ثابت فى مواضعه كأنه صُب فيها صبا . والأوامر العسكرية معروفة لا زخرف فيها ولا طلاء بل فخامة وقوة . وهذه الأوامر غلبت على شعر حافظ كما غلبت على شعر البارودى فمالت بهما عن

(١) الصحيح أن حافظا كان ملما باللغة الفرنسية وعنها ترجم البؤساء بتصرف.
(الرسالة)

التغريد المتعالى من شعر شوقى والخيال المغلف به منظوم شاعر الأمير

إذاً شوقى هو المتفوق . وشوقى روح عصر الانبعاث فى مطلع القرن العشرين . فهو مرآة الشعر فى هذا الزمن . ومن ينظر فى تاج قرائح شعراء اليوم يقبل على شوقى فى الطليعة ومن المحال أن ننسى خليل مطران . على أن المفاضلة تتناول فى فى مبحثنا حافظاً وشوقى دون سواهما . وحافظ لم يكن خصماً كشوقى ولا متفنناً مثله . وإذا قيل إن شوقى أغار على الأقدمين فليس يتجو حافظ من التهمة . هذا عارض من سبقوه وذاك عارض من سبقوه ، إلا أن أبواب الغزو لدى شوقى المطلع على الأدب العربى والغربى معاً أكثر منها لدى شاعر النيل . وهذا سرّ من أسرار تفوق الأول ووقوف الآخر دونه فى الطريق

ومما نشاهد أن عطف الناس على حافظ أقوى منه على شوقى . فإن لحافظ فى القلوب منزلة لم يبلغها شاعر الأمير . فكل من وقف على بؤس حافظ وإخفاقه فى أمانيه وعزة نفسه مال إليه متأثراً وتألم لألمه . والبائس يجد حوله ذوى الرفق ، على حين أن القرير العين يصطدم أبداً بالناقمين الكارهين . وهذا هو موقف الشاعرين من أبناء اللغة العربية . أحبوا حافظاً لبؤسه وخفقت فى صدورهم محبة شوقى لغناه . على أنهم إذا جاءوا يفاضلون بين الشاعرين آثروا شوقى على حافظ دون ما تردد . وتلك العاطفة الروحية لا بدَّ لها أن تتلاشى على مر الأيام ، يوم يفنى هذا الجيل ويبيت أبناء الغد حيال أدب شاعرين يعتمدون فى تحليل آثارهما على نور الحقيقة لا على نبضات القلوب

وهذا الإيثار لا يحط من قدر حافظ . فهو من أقطاب الشعر فى هذا العصر . وإذا استثنينا شوقى ومطران قلنا إن البلاد العربية لم تنجب حتى الآن من أمثاله . ويسرنا أن تدرك أخيراً مصر قدره وتقيم له المهرجان تلو المهرجان . وكنا نود أن يلقى هذا التكريم وهو فى قيد الحياة . فكان بحاجة إلى التقدير بعد كل ما عانى من بؤس وخيبة .

والتقدير لا يكفى إذا تهاون المصريون فى أمر ضريح الشاعر ، فان لرفات هذا الشاعر الجندى المتوقد القريحة شأناً تاريخياً من حق مصر أن تعتز به . فلن يقوم فى كل يوم فيها شاعر كحافظ ابراهيم .

ولقد أثبتت الأقطار العربية الأخرى انها تحترم حافظاً وتنحنى أمام أدبه العالى . فأوفدت ممثليها للاحتفال بذكراه والتغنى بمحامده . ولا ريب ان الملوك أنفسهم يشتهون أن ينالوا ما يتمتع به الشعراء بعد موتهم من خلود وتكريم . فالمتنبى والفردوسى لقيا من يحتفل بمرور ألف عام على موتهما . مع أن هذا التقدير العالى لم ينل مثله كسرى ولا هرون الرشيد . وأين الفردوسى والمتنبى من كسرى وهرون الرشيد فى إبان حياتهما ! . ولكن الأدب أبقى من العروش ، والشاعر أبعد خلوداً من الملوك ، وحافظ من هؤلاء الخالدين . ومن الراهن أن مصر تنسى المئات من أرباب التيجان الذين توالوا ويتوالون عليها ، ولا تنسى حافظا وشوقى والبارودى وصبرى وولى الدين ، وفى ذلك الدليل كل الدليل على أن الأدب وهو وليد النفوس ، أوطد أثراً فى قلب الدهر من التيجان والصوالجة ، وأن الأديب الأديب يرسخ فى أذهان الأجيال المقبلة رسوخاً لا يحلم به غير من دوخوا الأرض من أمثال الإسكندر ، ويوليوس قيصر ، وعمرو بن العاص ، ونابليون العظيم ! ...

(بيروت)

كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً